الباب الثالث

الثورة الجزائرية

فانون والمجتمع:

سافر فانون إلى الجزائر للمرة الأولى في عام ١٩٤٤ قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية حينما كان مقاتلا متطوعا في جيش فرنسا الحرة فأرسل إلي مدينة بجاية بالجزائر ليتلقي تدريبات عسكرية، في هذه الأثناء وقبل الرحيل رأي فانون في مدينة وهران مشهداً احتفظت به ذاكرته وسجله في كتاباته وأصبح هذا المشهد إحدى خبراته المبكرة في الحالة الاستعمارية.

وسافر مرة أخرى في عام ١٩٥٣ و ذلك بعد انتهاء دراسته للطب النفسي في جامعة ليون وكان فانون يتطلع وقتها للعمل بإحدى الدول الأفريقية، فقبل على الفور عرضا للعمل بمدينة بليدة بمستشفاها للطب النفسي.

سافر فانون إلي الجزائر للعمل وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرون عاما، محملا بعلمه كدارس للطب النفسي في جامعات فرنسا ومزودا بثقافة يغلب عليها الطابع الإنساني العام لاحتكاكه وارتباطه بالمثقفين الفرنسيين من أمثال سارتر وبصداقاته الواسعة مع قوي اليسار والديمقراطين الفرنسيين بالإضافة إلى دراسته للأدب والفلسفة، سافر مختزنا في داخله خبرة التفرقة العنصرية التي عاشها في موطنه الأصلي "المارتينك" والتي عايشها مجدداً ولمسها أثناء تواجده في صفوف جيش فرنسا الحرة، ومتمثلا تجربة تعامله مع الجزائريين والأفارقة الفقراء ومعالجته لهم أثناء عمله في مستشفي سان البان إلي جوار د. توسكيل صاحب المعرفة الواسعة بحقل العلاج الاجتماعي والتأثير الكبير على فانون في هذا المجال.

ترافق سفر فانون للعمل في الجزائر وهى على أعتاب فترة حاسمة، كانت تتهيأ فيها لبداية معركة التحرير والكفاح المسلح في نوفمبر ١٩٥٤، ومع الثورة عاش فانون خبرة وتجربة جديدة لها عمقها وأصالتها ولها أبلغ الأثر عليه، في تطوره ونضجه الفكري وفي إسهاماته العملية .

وبهذا المعني فإن للجزائر وثورتها وضع متميز وشديد الخصوصية في حياة فانون وتطوره مما يجعل من الضروري أن يُفرد لها مساحة نتبين فيها،

أولا : علاقة فانون بالثورة الجزائرية وتأثير الثورة عليه وعلى مراحل تطوره الفكري.

ثانيا: دور الثورة وتأثيرها على المجتمع الجزائري، على مستوي الفرد و الأسرة والمجتمع.

obeikandl.com

المبحث الأول

فانون والثورة الجزائرية

بانتقال فانون للعمل في الجزائر يمكن بقدر من الاطمئنان التمييز بين مرحلتين من حياته الفكرية والعملية، مرحلة ما قبل الجزائر ومرحلة ما بعدها، ذلك أن تجربة انتقال فانون إلى الجزائر وهى تتهيأ؛ لانطلاق ثورتها الوطنية، أمدته بخبره عملية وأتاحت له ظروفاً لم تكن لتتاح لو أنه انتقل للعمل في مكان أخر، ذلك أن الثورة الجزائرية شكلت عامل جذب لفانون، و هو الانتماء إلي شعب أفريقي يكافح ضد الاستعمار.

ويناقش في هذا المبحث الأسباب والدواعي التي جعلت من هذا الانتقال فاصلا بين مرحلتين ثم نوضح طبيعة الأدوار التي أداها فانون في نطاق الثورة الجزائرية و بعض التحولات التي طرأت على فكره ودور الثورة في أحداث هذا التحول، وذلك من خلال :

أولا : ظروف الانتقال والأدوار التي قام بها :

١- ظروف الانتقال إلى الجزائر :

ذهب فانون للعمل في الجزائر عام ١٩٥٣ وهي الفترة التي كانت الجزائر تتهيأ فيها لإطلاق ثورتها الوطنية في نوفمبر عام ١٩٥٤ مما أتاح له معايشة الأجواء والظروف الموضوعية للثورة قبل انطلاقها، بالإضافة إلي أن عمله في مستشفي بليدة وعلاجه للمرضى الجزائريين كان بمثابة خبرة عملية تكشف له من خلالها مدي تأثير عمليات المسخ والتشويه التي يقوم بها الاستعمار في نفسية الإنسان الجزائري وإحداث المرض فيه.

في هذه الأثناء كان فانون يبحث عن تجربة يجد فيها استقراره النفسي والفكري خاصة أنه أثناء إقامته في فرنسا "لم يجد في مذاهب اليسار الفرنسي أجوبة

شافية،؛ لأن اليسار الفرنسي كان أجنبيا إلي حد كبير عن الاهتمامات الأساسية التي من شأنها أن تشد رجلا يشعر بالاضطهاد والعنصرية بسبب انتمائه إلي شعب ملون أي غير أوروبي"[١].

وكذلك فالتيارات الأخرى التي كانت تثير اهتمامه في أفريقيا السوداء والتي كان من الممكن أن تجذب إليها فانون ومن أبرزها تيار الزنوجة، "لم يكن محل اقتناع كامل لدي فانون[٢].

وهذا هو الذي يدعو إلي القول بأن انتقال فانون للجزائر قد هيأ له ظروفا لم تكن لتتاح لو أنه انتقل إلي مكان أخر" وليس من المستبعد أن تكون تجربة فانون كطبيب نفسي في الجزائر وخاصة بعد دراسته لحالات المرضى بعد قيام الثورة المسلحة، قد كشف له عن المشاكل المتولدة من الاستعمار فكان انضمامه إلي الثورة الجزائرية، وإذا كان" لون فانون قد حال دون اندماجه في الغرب" [٣] .فإنه وجد في الجزائر ميدانا يمكنه من خلاله خوض معركة ضد الاستعمار معركة كلية شاملة.

وبتلك الفرصة التي هيأتها له الثورة الجزائرية يكون فانون قد وجد ضالته "بالانتماء إلي وطن أفريقي يحل مشاكله ويشبع نهمه للنضال وحماسه للعمل[٤] ،وبانضمام فانون إلي الثورة الجزائرية فإنه أصبح يشاهد الحقائق من خلال واقع ساخن عار، بعيد عن ضباب التجريد وتلوينات النظيرات الفلسفية"[٥] . مما مكنه وسهل له تغير أفكاره وتطورها بتفاعلها مع الأحداث.

٢- الأدوار التي أداها في فترة ما بعد الانتقال :

بانتقال فانون إلى الجزائر فإنه قام بأداء أدوار مختلفة

أ- الدور المهني

بسفره إلي الجزائر وعمله في مستشفي بليدة للأمراض النفسية، أصبحت أمامه الفرصة لتطبيق أساليب العلاج الاجتماعي الذي أتقنه مع أستاذه د.

(١) محمد اميلي، م س د، ص ٢٨

(٢) نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠

(٤) نفسه

(5) Renate Zahar, **Op.cit.**, P.XI

توسكيل ولكن فانون في محاولته لتطبيق الأساليب العلاجية والتي سبق إتباعها مع المرضي الغربيين، اصطدم بواقع أن الظروف الاجتماعية التي يجري في ظلها العلاج هي جد مختلفة وأن عدم أخذها في الاعتبار لا يؤدي إلي نتائج إيجابية، فضلا عن أن مشاهداته أوصلته إلي قناعة باستحالة علاج المرضي الجزائريين علاجا كاملا في ظل القهر والعنف الاستعماري الذي يمارس على الأهالي ... وأنه لمداواة المرض الجزائريين ينبغي وضع حد للاستعمار الفرنسي أولا.

وبوصوله إلي هذه القناعة، قدم فانون خطاب استقالته الشهير من عمله في مستشفي بليدة محتجا على هذه الأوضاع، ومهيأ نفسه للانتقال للقيام بدور أكثر راديكالية ذلك هو ما يمكن تسميته بالدور الكفاحي، هذا الدور المهني امتد في الفترة من نوفمبر ١٩٥٣ إلي ١٩٥٦ عام تقديمه لاستقالته. ب- الدور الكفاحي.

بعد استقالته، دخل فانون مرحلة جديدة من حياته اندمج فيها بالثورة الجزائرية وقطع كل صله له بماضيه ذلك أن التزام فانون الثوري وإن نشأ أصلا بشكل فطري من ممارساته المهنية إلا "أن راديكاليتها زادت خلال تجربته الشخصية في النضال التحرري الجزائري"[1] . وفي إطار هذه المرحلة قام فانون بعدة نشاطات منها ما هو على المستوي الفكري النظري وما هو على المستوي العملي والمشاركة الميدانية فعمليا قام فانون " بتدريب الممرضات الجزائريات على المقاومة السرية وقدم معلومات وأسلحة ولعب دورا رئيسيا في تدريب وحدات الفدائيين وعلم المجاهدين كيفية التحكم بالنفس وردود فعلهم في محاولتهم وضع المتفجرات وإلقائها وكيفية التحكم العقلي والجسدي في مواجهة التعذيب وتحمله[2] ومن الطبيعي أن جانبا من هذا الدور في كيفية التحكم في رد الفعل أداه فانون مستفيدا من خبرته وعلمه كطبيب نفسي.

و من أكبر المهام التي قام بها فانون هو العمل على بناء جبهة ثالثة على الحدود مع مالي جنوب الصحراء توجه فيها الأسلحة نحو الولايتين الأولي والخامسة"[3] .وذلك لحل مشكلة الواقع الميداني والمتمثل في صعوبة تموين الداخل عن طريق تونس والمغرب بعد إجراءات الحصار الفرنسية.

(١) محمد المليلي، م س ذ، ص١٢٥

(I) Renate Zahar, **Op.cit.,** P.XI

(٢) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص١٨٤

وإلى جانب النشاط العملي فقد تمارك فانون في الكتابة في صحافة الثورة معبراً عن آرائه ومقدما خبراته لقواعد الثورة وكوادرها وعاكسا رؤية قيادة جبهة التحرير في عدد من المسائل كما أصدر عددا من الكتب الهامة التي يبرز فيها خط تطوره الفكري وهو ما سيتم التعرض له لاحقا.

ج- الدور السياسي والدبلوماسي:

بدء هذا الدور في نهاية عام١٩٥٨ في نطاق ثورة الجزائر حينما عين عضوا في الوفد الجزائري إلى المؤتمر الأفريقي المنعقد في أكرا عاصمة غانا "وهناك تعرف على نكرومـا ولومومبـا، كـما تعـرف عـلى فليكس هـوميي رئيس اتحـاد السكان الكاميرون"[١]. وعدد آخرون من قادة حركات الاستقلال الأفريقية....ففي مارس عام ١٩٥٩ تحدث فانون أمام المؤتمر الدولي الثاني للكتاب والفنانين السود المنعقد في روما، وفي يناير عام ١٩٦٠ أتيح له الاتصال بممثلي الحركات الأفريقية ضمن المؤتمر السنوي للشعوب الأفريقية الآسيوية المنعقد في تونس و القي في هذا المؤتمر خطابا عبر فيه عن إيمانه بأن العنف هو السبيل الوحيد التي يجب أن يسلكها المستعمرون.

ونوقش في هذا المؤتمر التطورات التي حدثت منذ المؤتمر الأول في أكرا وطالب فيه بتكوين فرقة من المتطوعين الأفارقة للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.

وفي مارس في نفس العام عين فانون ممثلاً دائماً للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في أكرا وكان فانون في كل حركاته " مجسدا للرابطة بين كل من أفريقيا التقليدية في شمال وجنوب الصحراء وبين العالم الثالث".

وتواصل تمثيل فانون للثورة الجزائرية في أفريقيا وغيرها من المحافل، وأداؤه لهذا الدور أتاح له الإطلاع على تجارب هذه البلدان والاحتكاك المباشر بناسها ومشاكلها وكذلك فالتقاؤه بالقادة والنخبة من السياسيين الأفارقة أتاح له قدراً من التفاعل والتواصل المشترك كما أنه" يدمج الجزائر في حركة النضال الوطني الأفريقي"[٢]. ويؤسس لعلاقات مشتركة أكثر صلابة وأسهم هذا التفاعل بدوره

(١) محمد الميلي، فانون والثورة الجزائرية، م س ذ، ص ٢٥

(2) Renate Zahar op,cit.,x111

في تطوير وعي و فكر فرانز فانون وفي صقله، وساهمت استخلاصات هذه الفترة في أن يكون فرانز فانون هو ذلك المفكر النظري والمؤلف المستقبلي لكتاب" معذبو الأرض.

ثانيا: مجالات تأثير الثورة الجزائرية على فانون:

سبق الحديث عن أن انتقال فانون إلي الجزائر كان خطا فاصلا بين مرحلتين من حياته، وفي إطار المرحلة الجزائرية والتي تبدأ منذ عام ١٩٥٣ وهو عام الانتقال للعمل في الجزائر يجري التميز في هذه المرحلة بين ثلاث مراحل يتم التميز فيها هي الأخرى على أساس درجة التفاعل والاندماج مع ظروف الجزائر الثورة والمشاركة في فاعليتها والتفاعل معها ويعبر عن هذه المرحلة كتاب(معذبو الأرض) الذي كتبه فانون على فراش المرض وانتهي منه وتم نشره قبل وفاته بأيام، ذلك أن هذا الكتاب يعكس الكثير من تأثير الثورة الجزائرية على فكر فانون في نفس الوقت الذي يعكس فيه تطور الفكر الثوري عند فانون متفاعلا مع هذه الثورة وملابستها حيث تكشف له من خلال ذلك التفاعل عن حقائق جديدة تتصل بأفريقيا كما تكشف عن حقائق أخرى[١] .تتصل بالعالم الثالث.

ويفند محمد المبلي ما اعتبره" خطأً تاريخياً وقع فيه بعض من تناولوا حياة فانون بحديثهم عن تأثير فانون على الثورة الجزائرية بما يوحي أنها كانت خالية من أي فكر سياسي حتى قيض لها الله فرانز فانون[٢] . وأن هناك فكرة استقرت في الأذهان من كثرة ما ترددت في الكتابات وهي أن فانون أثر في الثورة الجزائرية وأن تأثيره كان حاسما حتى أن هناك من اعتبره منظر الثورة ومفكرها[٣] ولم يتطرقوا في رأيه إلي مدي تأثير الثورة الجزائرية في فانون ومدي انصهاره بأصالتها وجذريتها، ويستدرك بأن دراسته هي لتصحيح وضع خاطئ لا ينال من مكانة فانون ولا التشكيك في أصالة تفكيره وأن ما ينكره هو سريان التأثير في اتجاه واحد من فانون إلي الثورة الجزائرية. وأن هدف الدراسة هو إظهار مدي تأثر فانون بالثورة الجزائرية والإشارة إلي بعض

(١) محمد المبلي، م س ذ، ص١٩٦
(٢) المرجع السابق، ص٥
(٣) المرجع السابق، ص٣٢

الجذور الفكرية في فكر الثورة الجزائرية و لنابعة من طبيعة الصراع الذي خاضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار.

وحدد عددا من القضايا للتدليل على صحة استنتاجه من أهمها:

- موقف فانون من اليسار الفرنسي وتطور نظرته إليه متأثرا بفكر الثورة.
- الموقف من الماضي والثقافة الوطنية .
- رؤية فانون لدور الفلاحين في الريف من الثورة .
- فانون واليسار الفرنسي .

يحدد فانون موقفه من اليسار الفرنسي في " أن الشعب الجزائري يعتبر أن اليسار الفرنسي لم يقم بواجبه في نطاق حرب الجزائر وأن المواقف التي يتبنونها تبدو متعارضة مع تبنيهم المبادئ المناهضة للاستعمار"[1].

وينطلق فانون في تحليله لهذه العلاقة الملتبسة بين اليسار وحركة التحرير الوطني الجزائري وللتهافت والتناقض في موقف اليسار إلى سيطرة فكرة أن الجزائر فرنسية واعتبار فرنسا أن التراب الجزائري امتدادٌ لفرنسا، وتحت تأثير هذه الفكرة المركزية والتي اكتسبت قبولا واسعا لدي الفرنسيين فإن الأحزاب الفرنسية أنشأت لها فروعا في الجزائر تتبنى نفس الشعارات التي تصدرها الأحزاب في الوطن الأم مما أدي باليسار الفرنسي إلي أن "يكتفي بالعمل من أجل تحقيق جزائر تزيد فيها نسبة الحريات الفردية والعدالة.." [2].

وفي تفسيره لهذا الموقف الملتبس للمثقفين والديمقراطيين الفرنسيين يقول فانون، أنه منذ عام ١٩٦٥ أصبحت حرب الجزائر مقبولا بها من طرف الأمة الفرنسية وأن الآلة الإعلامية الاستعمارية كانت تستغل بعض العمليات التي يسقط فيها ضحايا مدنيين لتعزيز تهمة الإرهاب ضد المقاومين وأصبحت "تهمة الخيانة سلاحا رهيبا في أيدي الحكومة الفرنسية تهدد به المناهضين لحرب الجزائر"[3].

(١) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص٧٦.
(٢) نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

وأمام هذا المد اليميني المتطرف فإن اليسار الديمقراطي لزم حدود وجوده الضيق ذلك "أنه لا يملك جذور شعبية ولا يتمتع بسمعة وهيبة عند الشعب"[1].

وأصبح المثقفون اليساريون المحاصرون سياسيا يقدمون نصائحهم وشروطهم للشعب الجزائري كنوع من الوصاية الأبوية ويطالبونهم بوقف هذه العمليات كضرورة للاحتفاظ بصداقة اليسار، ويتوجهون بالخطاب إلي جبهة التحرير ليوجهوا " لها انتقادات أو نصائح سياسية تتعلق بهذا المظهر أو ذاك من حرب التحرير ... والمحرك لهذه النصائح هو الرغبة في قيادة وتوجيه حركة التحرر الوطني "[2].

ويميز فانون بين موقفين متعارضين لليسار، اليسار غير الشيوعي واليسار الشيوعي، فاليسار غير الشيوعي يربط تأييده ومساندته للقضية الجزائرية ،بمطالبة الجزائريين بضمانات من أن الجزائر لن تنحاز إلي الكتلة الشيوعية ولن تتبع الكتلة المحايدة وإذا كان لابد من الانحياز فإنهم يطلبون منهم الانضمام إلي الكتلة الغربية ومن جانب أخر وفي خط معاكس فإن اليسار الشيوعي يحاول الحصول على ضمانات وأن ينتزع وعودا بأن لا تستقر الإمبريالية الأمريكية في الجزائر،؛ لأنه لا فائدة يكسبها الشيوعيون الفرنسيون إذا ما حدث هذا.

إذن لكل أولوياته وأجندته الخاصة (وأصبحت الجزائر التي لم تستقل بعد محل صراع نفوذ على المستوي الدولي) ونسي الجميع أن المهم للشعب الجزائري هو استرجاع سلطته وتحقيق حريته الاقتصادية والسياسية.

ويدين فانون موقف المساومة على التأييد و الذي تقفه أقسام اليسار الفرنسي ويخلص إلي نتيجة حاسمة بأنه بمقارنة "(موقف اليسار الفرنسي) بأهداف كفاحنا يتضح لنا أنه لا يوجد أي قسم من أقسام هذا اليسار يقبل بإمكانية تحرير حقيقي"[3].

ويري الميلي أن وجهة النظر هذه التي صاغها فانون عبر ثلاث مقالات وعنونها باسم (المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية) كان معبرًا فيها عن فكر الثورة الجزائرية مدللا عن ذلك" بان هذه الأفكار وردت في مقالات

(١) المرجع السابق، ص٦٢.
(٢) المرجع السابق، ص٦٥.
(٣) فانون ، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص٧٤.

أخري من "المجاهد" لم يكتبها فانون كما نجدها في تصريحات رسمية للثورة الجزائرية"[1].

ويري أيضا أن هذه الآراء تمثل تغيرا في موقف فانون وذلك بسبب اندماجه الكامل مع الثورة إذا أن موقف فانون في المرحلة الأولي " لا يختلف عن موقف الأوربيون الأحرار الذين رفضوا أساليب الاستعمار وأدواتها دون أن يتبنوا كلية مواقف الثورة الجزائرية"[2].

وأنه على عكس ما يراه البعض في أن كتابات فانون أسهمت في توجيه الثورة الجزائرية نحو الاتجاه الراديكالي فهو يري أن علاقة فانون باليسار الفرنسي قبل حرب التحرير واستعراض علاقة هذا اليسار بالحركة الوطنية الجزائرية تظهر أن الثورة الجزائرية هي التي أثرت في فانون ودفعت به إلي اتجاه نقد مواقف اليساريين الفرنسيين بأقساهم المختلفة، وأن فانون بقصعه كل صلة له بماضيه فإن موقفه من اليسار تأثر بشكل أساسي بتطور العلاقة بين الثورة وهذا اليسار الفرنسي.

ويمكن اعتبار أن هذا الذي ذهب إليه الميلي في هذه المسألة بالتحديد هو شيء منطقي ويتفق مع منطق الأمور ففانون بطبيعة الحال شأنه شأن أي مثقف ملتزم يتخذ من المواقف ما ينسجم مع موقفه المبدئي، وفي ذات الوقت فإن هذه المواقف ليست ثابتة أو جامدة ولكنها تتبلور وتتفاعل مع مقتضيات الحال وتطور الصراع ومواقف الآخرين، و كون فانون تلقي تعميمه الجامعي في فرنسا واتصل بمثقفيها وتياراتها الفكرية فأن علاقته باليسار حينئذ تحكمها العلاقات الودية فذلك هو ما كانت تقتضيه طبيعة التطور الفكري لفانون قبل عام ١٩٥٤ وأن نقده لليسار بعد انضمامه للثورة يأتي لتأكيد مصداقيته كمثقف يتفاعل مع الأحداث ويتطور بها..

الموقف من الماضي والثقافة الوطنية :

في مرحلته الأولى رفض فانون أي ارتباط بالماضي فالماضي عنده لا قيمة له فهو القائل "أنا لا أريد أن أتغني بالماضي على حساب المستقبل" وأيضا " إني لأسلم

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ١١٥.
(٢)المرجع السابق، ص ١٣٠.

بأن وجود حضارة أزتكية[1] . قديمة ليس له على صعيد الحياة شأن كبير، فهو لا يبدل شيئا في النظام الغذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي ...وأن جميع البراهين التي يمكن الإتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قامت في الماضي لا تمثل شيئا من الواقع الذي يعيشه شعب سونغاى اليوم"[2] . وبرفض الماضي فإن نقطة البدء عند فانون هي الثورة.

ويفسر الميلي هذا التوجه عند فانون بأن كونه من "المارتنيك " فموقفه من الماضي له ما يبرره حيث لا ماضي يعتمد ويعتز به، فتاريخ المارتنيك" هو تاريخ الرق ولم يكن ماضيه مقترنا بالكفاح من أجل الحرية وكذلك فالقضاء على الرق لم يتم بواسطة الكفاح وإنما تم بعمل خارجي.

وإدانة الماضي ورفضه، تلتقي مع الفكر الغربي الذي لا يعترف بأي ماضي آخر غير الماضي الغربي ويلتمس الميلي عذرا لفانون بأن الماضي الذي كان يمكن له أن يعتز به ويستلهمه هو ماض الجزائر ولكنه حتى عام ١٩٥٢ وهو وقت إعلان آرائه السابقة في كتاب "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" لم يكن تعرف بعد على الثورة الجزائرية وهو أيضا لم ينشأ في وسط متشبع بالثقافة العربية الإسلامية حتى يمكن له أن يكتشف قبل قيام الثورة" أهمية الثورة في توجيه الإنسان" وطرح الماضي عند فانون يعني ضمنا إنكار للتاريخ ودور الثقافة الوطنية وذلك هو ما يستخلص من آرائه عن عدم أهمية وجود حضارة قديمة وان وجود هذه الحضارة لا تبدل من الواقع المعاش شيئا.

هذا الرأي الذي عبر عنه فانون في مرحلة ما قبل الانتقال إلي الجزائر، بدأ في التغير بعد احتكاكه بالشعب والثورة، بدأ هذا التحول واضحا في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج الذي انعقد في باريس ١٩٥٦ ونشر في كتاب (من أجل أفريقيا) تحت عنوان(عنصرية وثقافة) في هذا المقال يؤكد فانون " أن الانغماس في الماضي هو شرط الحرية ومنبعها"[3] وبعد" أن كان ينكر كل دور للتقاليد ولا

(١) الأزتك مجموعة من المكسيك الأمريكان الهنود، هاجروا جنوبا لوادي المكسيك في القرن الثاني عشر، وبنوا عاصمتهم في منطقة بحيرة مارشلاند وهي نفس الموقع الحالي لمدينة مكسيكو سيتي.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص ٠٠.

(٣) فانون، من أجل [illegible] م س ذ، ص ٢٥.

يعترف بالماضي ولا بالتاريخ ولا بالثقافات الوطنية فإنه أصبح يؤكد بأن الثقافة التي كانت مجمدة منذ السيطرة الاستعمارية يعاد لها الاعتبار"[1].

وأن " الشعب الجزائري لم ينس ماضيه، فعلى الرغم من القمع الاستعماري استطاع أن يلوذ بقيمه الوطنية كما يلوذ بقلعة محصنة"[2].

وأن البرهان على وجود حضارة قومية قديمة " لا يرد الاعتبار وحسب لا يدل على أن حضارة قومية جديدة ستقوم في لمستقبل وحسب وإنما هو أيضا على صعيد التوازن النفسي يحقق للمستعمرين وثبه كبرى"[3]. و ما كان مجرد تقاليد جامدة متأخرة أصبح بشكل جزء من الثقافة الوطنية رابطا بين ذلك و بين صمود الشعب الذي تحول في فترة لاحقة إلي مقاومة إيجابية ومسلحة ضد الاستعمار.

ويفسر الميلي هذا التحول في فكر فانون إلى أنه في عام ١٩٥٦ وهو عام إعلان هذه الآراء يكون قد مضي عليه في الجزائر ما يقرب من ثلاث سنوات وستين منذ بداية الثورة ، وان التحول الواضح في رؤية فانون كان يتعزز دائما بممارسته للعمل من داخل موقع الثورة التي أتاحت له أن يتعرف على الكثير من الحقائق التي كان يجهلها.

دور الفلاحين في الثورة :

وثمة وجه أخر من أوجه تأثير الثورة الجزائرية على فانون فكرياً، وهو الدور الذي أولاه فانون للفلاحين في الثورة وحركة الكفاح المسلح وفهمه لهذه الطبقة على أنها الطبقة الثورية الوحيدة في البلاد المستعمرة بسبب أنها ظلت محتفظة بهياكلها الاجتماعية منغلقة على كل تأثير استعماري فحافظت على تماسكها على النحو الذي سبق الإشارة إليه في الفصل السابق.

وفي هذا الشأن فإن فانون كان يحمل في داخله تمجيدا لقيم الريف ناتجاً عن تأثره بالكتابات الزنجية في مرحلة لاحقة وإذا كانت بعض تجارب شرق أسيا

(١) المرجع السابق، ص١٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١٩٩

كالتجربة الصينية تعطى مثالا ملهما، إلا أن المثال الجزائري كان واضحا في تأثيره فقد كان فانون يكتب وهو "يستعرض المعجزات التي حققتها جماهير الفلاحين في الريف الجزائري"[1].

فعنصر الريف والفلاحين بما أعطي لهما من قيمة في الثورة الجزائرية كان قائمين منذ اندلاع الثورة وعنصرا أساسيا من عناصرها.

ويري الميلي أن أول نوفمبر ١٩٥٤ نفسه كان انتصارا للمفهوم المنادى بالاعتماد على الريف في الثورة ضد الدعوة الأخرى التي ترى أن تحقيق أي تغير سياسي لا يمكن أن يتم إلا عبر المدن، " وأن إعلاء قيمة الريف والفلاحين كان من بين العناصر التي استهوت فانون وساعدت على انجذابه نحو الثورة الجزائرية وأن تأثير الثورة عليه في هذه المسألة كان حاسما[2].

ثالثا: مراحل التطور في إطار الثورة:

يمكن متابعة مراحل التطور الفكري لفانون بتتبع إنتاجه الفكري، أو بتقسيمه إلى مراحل زمنية حسب درجة تفاعله مع الثورة الجزائرية وفي واقع الحال فان كلا من الأسلوبين يتطابقان؛ لأن لكل مرحلة زمنية كتابها الذي يعبر عنها.

وإذا كانت مجريات الأحداث كما اتضحت في المطلب السابق تظهر أن للثورة الجزائرية دورا وتأثيراً في تطور بعض الأفكار التي تناولها فانون في كتاباته الأولي وإذا كان هناك ما اعتبره خطا فاصلا بين مرحلتين متميزتين في حياة فانون وتطوره الفكري فيكون من الطبيعي وللتدليل على جذرية هذا الانتقال الإشارة إلي طبيعة تكوين فانون الفكري في مرحلة ما قبل ثورة الجزائر ثم توضيح مراحل تطوره الفكري في إطار مرحلته الجزائرية وهذا ما سيتم تناوله على النحو التالي:

---

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ١٧٤.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص ص ٥٢-٥٣.

١- مرحلة ما قبل الجزائر :

وهي مرحلة قصيرة نسبياً يمكن قياسها بأنها أقرب إلى أن تكون مرحلة تكوين، وتشمل فيما تشمل فترة وجوده في فرنسا إبان دراسته في جامعاتها والفترة القصيرة التي أمضاها في أوروبا بعد تخرجه ويمكن العودة بها قليلا إلي الوراء لتستوعب فيها خبرته في القتال في الحرب العالمية الثانية وبعض مشاهداته في موطنه الأصلي "المارتنيك"، في هذه المرحلة كما ذكر سابقا درس فانون الفكر الغربي واستوعبه وارتبط إنسانيا بأبرز رموزه المعاصرة، كما أنه اتصل بالمثقفين الفرنسيين التقدميين واحتك بالحضارة الغربية بشكل عام وانعكس ذلك على فكره و شكله في إطار إنساني عام تعزز في داخله بدراسته الطب النفسي وما جبل عليه من تكوين فطري يرفض الظلم، هذا التكوين الذي دعاه إلي الانضمام إلي قوات فرنسا الحرة دفاعا عن فرنسا ضد الهجمة النازية ويظهر ذلك في قوله " أنا لست على وجه الأرض لأدافع عن السود فقط وإنما عن كل مظلوم ومضطهد " .

وساهم لون فانون الأسود في إحساسه بوطأة التفرقة العنصرية التي شاهدها في أثناء فترة تواجده ضمن القوات الفرنسية المحاربة.

هذه المرحلة بكل ملابساتها رسبت في أعماقه إحساس ضد الظلم وضد التفرقة وكان طابع تفكيره فيها يغلب عليه لطابع الإنساني العام، وفيها نشر أول كتاب له في عام ١٩٥٢ وعمره ٢٧ عاما.وقد مكنه هذا الكتاب – الذي كتب مقدمته الكاتب الفرنسي فرانسيس جانسون الوثيق الصلة بسارتر المثقف الأشهر في عصره – من أن يتبوأ مكانة محترمة بين المثقفين الفرنسيين.

في كتاب (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) تحدث فانون عن معاناته من العنصرية "عندما استحدث إلي من يحببونني يقولون إنهم يحبونني على الرغم من لونى وحينما أتحدث إلي من يكرهونني يعتذرون بأنهم لا يكرهونني بسبب لونى وفي كلتا الحالتين أجدني حبيس الحلقة اللعينة إياها"[1] كما ناقش فيه موقفه من الزنوجة ورفضه للقيم الزنجية " لا ينبغي لي بأي شكل من الأشكال أن استمد هدفي الأساسي من ماضي الشعوب الملونة ولا ينبغي أن أكرس نفسي بأي شكل من الأشكال لبعث حضارة

(1) Fanon, Frantz , Black skin and White Masks, **Op.cit.**, P.116.

زنجية غير معترف بها"[1] وأن حل المشكل العنصري لا يكمن في الزنوجة " فالذي يمجد الزنوج لا يقل مرضا عن الذي يكرههم"[2].

فموقف فانون من العنصرية هو موقف إنساني عام ولهذا فإن رفضه للعنصرية البيضاء لم يكن ليقل عن رفضه للزنوجة التي اعتبرها نوع من العنصرية مضادة للعنصرية وذلك باعتبارها نقيضا للعنصرية البيضاء ومتولدة عنها وهي بنفس المعنى تخلوا من البعد الإنساني بنفس قدر خلو العنصرية البيضاء منها.

وباستعراض الخط العام لأفكار فانون في هذا الكتاب يصبح من الواضح مدي التطور الفكري الذي صاحب فانون في انتقاله إلى مرحلته الجزائرية.

٢- مرحلة ما بعد الجزائر :

تمتد هذه المرحلة زمنيا منذ انتقاله للعمل في الجزائر عام ١٩٥٣ حتى وفاته في نهاية عام١٩٦١ ويجري تقسيمها هي الأخرى إلي ثلاثة مراحل يتم التميز بينها على أساس درجة التفاعل والاندماج مع ظروف الجزائر الثورة، وذهب أحد المثقفين.إلي تحديد هذه المراحل على النحو التالي.

- مرحلة أولي هي مرحلة التعرف إلي الثورة الجزائرية
- مرحلة ثانية هي مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية.
- مرحلة ثالثة وهي مرحلة التفكير في نوع من الأممية على مستوي العالم الثالث.

يمكن تحديد مرحلة التعرف على الثورة الجزائرية زمنيا بأنها الفترة منذ عام ١٩٥٣ إلي بداية عام ١٩٥٧ والتي وصلت إلي نهايتها بتقديم فانون طالب استقالة من عمله كطبيب في مستشفي بليدة إلا أن المرحلتين التاليتين لا يمكن الفصل الزمني بينهما لتداخلهما ويمكن اعتبار أن مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية هي مرحلة ممتدة ومستمرة منذ انضمامه الفعلي إلي حركة التحرير الوطني ومساهمته في كافة

(1) Ibed, P.226.

(٢) محمد المليلي، م س ذ، ص ٦٢.

فعالياتها وحتى وفاته في أخريات عام ١٩٦١ وأن المرحلة الثالثة هي نتاج الاندماج والتفاعل مع الثورة ويجري تحديدها وتصنيفها على هذا النحو باعتبارها تمثل مرحلة متميزة من التطور الفكري الناتج من مجمل الخبرة المتحصلة من الاندماج في الثورة وبما أتاحته له من فرصة الاحتكاك خارج الإطار المحلي أفريقيا وإقليميا.

المرحلة الأولي وهى مرحلة التعرف على الثورة الجزائرية لا توجد فيها أية إسهامات فكرية يمكن العودة إليها لتبين مجمل أفكار فانون فيها وهي فيما يدل عليه عنوانها فترة تعرف - يجري فيها متابعة الأحداث ومراقبتها- وهي أقرب الى أن تكون فترة تكوين، كان فانون يقوم خلالها ببعض التحقيقات الميدانية في بعض جهات الجزائر، ومن خلال خبرة تعامله مع المرضي الجزائريين وما تبين له من الأثر السلبي الذي يحدثه القهر الاستعماري والعنف الممارس ضد الأفراد على شخصيتهم فمن مجموع هذه الخبرة المتحصلة وصل فانون إلى لحظة الحسم إلي القناعة التي أوصلته إلي تقديم خطاب استقالته والسابق الإشارة إليه وبما يحمله من مضامين منهيا بذلك تلك المرحلة الانتقالية في حياته ومتقدما إلي خطوة أبعد بانضمامه إلي جبهة التحرر الوطني مشاركا نشطا في فعاليتها ليدخل بذلك في مرحلة الاندماج في الثورة، وينحو دافيد كوت نفس المنحني حين يذكر: أما بالنسبة لفانون فقد كانت الفترة الحاسمة التي أعد فيها قولبة أفكاره هي تلك الفترة الممتدة بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦[1].

المرحلة الثانية و بدايتها اندماج فانون في الثورة الجزائرية وتوليه أدوارا متعددة ابتداء من مشاركته في تحرير صحف الثورة والكتابة فيها ،مرورا بتوليه مهمات نضالية سواء بتدريب الكادر أو العمل على بناء جبهة الجنوب مع الحدود المالية أو دوره السياسي والدبلوماسي حسب ما تم تفصيله في المبحث السابق، هذا الاندماج أتاح لفانون مجالا أوسع للحركة وأفقا أرحب للمشاركة يتعدى في مرحلته الأخيرة أفق المحلية وذلك بما هيأته له الثورة من اتصال بأفريقيا في نهاية عام ١٩٥٨ وبتعرفه إلى قادة وممثلي حركات التحرر الأفارقة وإطلاعه على تجارب هذه البلاد والاحتكاك المباشر بواقعها.

أدت هذه التجربة إلي تطور كبير في فكر فرانز فانون منذ ظهور كتابه الأول وحتى صدور كتابه الأخير معذبو الأرض في عام ١٩٦١، "وإذا كانت الفترة الأولي؛

(1) David Caute. **Op.cit.**. P.34

لانتقاله في صفوف الثورة قد مكنته من اكتشافات هامة مثل اكتشافه لدور الثقافة الوطنية ودور التاريخ وأهمية الماضي في صنع صمود الشعب ضد محاولات المسخ والتشويه، فقد مكنه اتصاله بالخارج عبر الثورة من اكتشاف جوانب جديدة سرعان ما ظهرت آثارها في كتاباته الأخيرة"[١].

وعبر كل مرحلة من المراحل صاغ فانون خبرته وسجلها في أحد كتبه فظهر كتاب " خمس سنوات على الثورة الجزائرية والذي صدر أحيانا تحت عنوان "سوسيولوجية ثورة" ونشر في عام ١٩٥٩ بمناسبة خمسة سنوات على الثورة،وفي هذا الكتاب يشرح فانون ويرصد أغلب جوانب الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع الجزائري قبل وبعد اندلاع الثورة وكيف أن" الكفاح المسلح يولد حركة تحرر وتقدم سريعة في التركيب الاجتماعي والذهني للجزائريين"[٢]،و يبين كذلك حجم التغيرات التي إحداث التغير الاجتماعي.

والمرحلة الثالثة والأخيرة من حياة فانون وهى كما وقد سبق الإشارة امتداد لمرحلة سابقة وتميزها الأساسي أن فانون خرج في إطارها من مجرد العمل في نطاق جزائري محلي إلي التفاعل والتعامل مع العالم الخارجي بما أسندته إليه الثورة من مهام تمثيلها في الخارج وتعينه سفيرا لها في في أكرا ويأتي ذلك التطور متسقا مع كون أن الثورة الجزائرية" تشتمل على أبعاد عالمية مؤكدة : من الطابع العربي الإسلامي إلي البعد الأفريقي، إلي التفاعل مع العالم الثالث وظهور هذه الأبعاد بوضوح في كتابات الثورة الجزائرية"[٣]. وبالتالي فأنها كانت" أبعد ما تكون عن المحلية الضيقة ... باختصار كانت الثورة الجزائرية تشتمل على بذور مؤكدة لنوع من "الأممية"، عملي على مستوي المضطهدين في العالم[٤].

وفي هذه المرحلة صدر لفانون كتاب(معذبو الأرض) الذي جاء في فترة مناسبة وضمنه خبرته التي حصلها في ظل الثورة وينعكس فيه الكثير من تأثير الثورة الجزائرية في تطور فكره متفاعلا مع الثورة وملابساتها ، في هذا الكتاب طرح فانون

(١) محمد المليلي، م س ذ، ص١٦٥.

(2) David Caute, **Op.cit.**, P.51.

(٣) محمد المليلي، م س ذ، ص ١٨٩

(٤) المرجع السابق، ص١٦٦.

ودرس كثيرا من قضايا الاستعمار وحركة التحرر والتي كانت مدار البحث في هذه الدراسة في فصولها السابقة فطرح قضايا تعميق الثورة. وكشف عن النهب الاستعماري لثروات العالم الثالث.

وعمم خبرته وتجربته المستقاة من واقع الثورة الجزائرية على بلدان العالم الثالث، وأظهر الحاجة إلى تضامن شعوب العالم الثالث الرازحة تحت الاستعمار وأسياهم بحق معذبو الأرض.

obeikandl.com